كتاب في مقال

مع كتاب «الإسلام والرأسمالية» لمكسيم رودنسون
عرض ونقد

بقلم : غازي التوبة الربيعي

ما كنا لنقف أمام هذا الكتاب لولا أننا نرى أن المؤلف (مكسيم رودنسون) بدأ يصعد لاحتلال مركز التوجيه في الفكر العربي بعد حرب حزيران ، ويمكن أن نتأكد من صحة ذلك بتصفح بعض المجلات الفكرية والاخبارية لنشاهد عرضا وتلخيصا لكتبه ، وحديثا عن آخر أنبائه .

ويمكن أن يكون أمر كتاب رودنسون غير ذي بال ، فما أكثر ما كتبه المستشرقون عن الاسلام وغيره ، لولا شعورنا بأن القارىء العربي يمكن أن يستمرىء في هذه اللحظة أفكار المؤلف رودنسون ، ويمكن أن تدخل الى نفسه من خلال التزيين والتجبيب المسبقين اللذين قدمت بهما المجلات العربية شخصه : من أنه أحد المتجاوزين لوضعهم الديني والمناصرين لحق العرب بعد الخامس من حرب حزيران ، في وقت أضحى فيه القارىء العربي مألوماً مكدوما من مناصري قضيته وبخاصة بعد أن فجع بجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار اللذين أكرمتهما دور النشر العربية فترجمت لهما معظم كتبهما الى العربية ، ومجدتهما المجلات العربية فقدمتهما على أنهما مثال وقدوة تحتذى ، وبالفعل فان جيلنا قد نهل من أفكارهما خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، وأثرا في أدبه ومواقفه ، فجع بهما يقفان الى جانب قضية يهود ، ويتظاهران تأييدا لاسرائيل بعد اغلاق مصر لمضائق تيران في أيار ١٩٦٧ ، ويوقعان على عريضة تؤيد حق اسرائيل في المرور من خليج العقبة ، فجع بهما ولما يتمثلا بعد الطعام الذي أكرمتهما به مصر قبل حوالي شهرين من أزمة مضائق تيران .

ان كل أملنا أن لايفجع القارىء العربي ــ في النهاية ــ برودنسون(١) كما فجع قبله بسارتر ودي بوفوار اللذين دخلا الى قلب القارىء العربي من قضية الجزائر ، وخرجا منه بقضية فلسطين .

ومع ذلك فنحن يجب ان نتابع الدراسات الاستشراقية في الغرب لا لنستهلك كل طاقاتنا في الرد عليها ، فان الفكر الاسلامي تجاوز ــ الآن ــ مرحلة اخذ صكوك البراءة من مفكري الغرب ، وقد تجاوز مرحلة ردود الفعل والعقد التي كانت تحركه في السابق والتي كان المستشرقون يدركونها ، فيستفزونها لتبقى أمور توجيهه في أيديهم من ناحية ، وليستنزفوا طاقته وامكانياته من ناحية ثانية . يجب ان نتابع الدراسات الاستشراقية بحدود ثلاثة أهداف :

الاول : الاستفادة من طرائقها ومناهجها المتقدمة في البحث .

الثاني : استكشاف المخططات الغربية المتعلقة بالمنطقة . وذلك لأن الدراسات الاستشراقية هي الارض التي تنبني على ضوئها مخططات الدول الغربية في منطقتنا ، وهي التي تحدد وجهة سياساتها .

فمثلا دعت جامعة برنستون الامريكية ومكتبة الكونغرس الى مؤتمر للبحوث الاسلامية في صيف ١٩٥٣ ، وقد استضاف المؤتمر عددا من الكتاب المسلمين اليه ، وقد ثبت فيما بعد أن سياسة أمريكا في العالم الاسلامي قد انبنت على ضوء دراسات هذا المؤتمر .

الثالث : الاهتداء الى جذور بعض الافكار التي ينعق بها بعض كتاب عالمنا العربي ، فاذا علمنا مثلا ان الفكرة التي تبناها طه حسين عام ١٩٢٦ في كتاب (في الشعر الجاهلي) ، والرامية الى انكار وجود الشعر الجاهلي ليست الا ترديدا وتوسيعا للفكرة نفسها التي طرحها المستشرق (مرجليوث) في مجلة (الجمعية الآسيوية) ، علمنا الجهة المستفيدة من نجاح هذه الدعوة ، وأدركنا بعض مراميها التخريبية .

والآن بعد هذه المقدمة اليسيرة ننتقل الى عرض الكتاب .

---

(١) مكسيم رودنسون : مستشرق وعالم اجتماعي فرنسي يهودي ولد في باريس عام ١٩١٥ وأتم دراساته فيها ، ثم قضى سبع سنوات في الشرق الاوسط أستاذا ثم موظفا في مصلحة الآثار في بيروت . وهو الآن مدير للدراسات في « المدرسة العملية للدراسات العليا » في جامعة الصوربون حيث يعلم الاثيوبية والحميرية القديمتين ، ويحاضر في التاريخ البشري للشرق الاوسط ، ويدير مجلة (الشرق الاوسط) . وله دراسات عديدة عن الشرق المعاصر والتاريخ الثقافي والبشري للعالم الاسلامي ، وله كتاب (حياة محمد عليه الصلاة والسلام) يعيد النظر فيه الآن تمهيدا لاعادة طبعه ، وينتظر ان يصدر له كتاب (أثنولوجية الشرق الاوسط) ، وكتاب (الاسلام والاشتراكية) .

التصـدير

يقول رودنسون في بداية الكتاب : «ان هذا الكتاب قصدا وواقعا ذو اتجاه ماركسي » . ويحدد ما يعنيه بذلك فيقول : إنه لا يعتقد بأحادية الماركسية بـل يميز في الماركسية بين « ماهو اتجاه فلسفي ، وما هو نظريات اجتماعية ، وما هو ايديولوجية محضة » ويصرف النظر عن الاتجاه الفلسفي ، ويستنـد على ما انتهى اليه ماركس من نظريات اجتماعية عامة ، أو اجتماعية تاريخية .

الفصـل الاول

تحديد المشكلة المطروحة

يحدد رودنسون في هذا الفصل ما تعنيه ـ بالضبط ـ كلمة الراسمالية ، ثم يطلق صفة القطاع الراسمالوي ، على القطاع الذي يشمله راس المال البضاعي وراس المال النقدي في المجتمعات السابقة للراسمالية . ثم يقول : ان المجتمـع الاسلامي قد عرف (القطاع الراسمالوي) في نفس القرون التي عرفتها أوروبا. ويتساءل : هل تتماثل الاشكال في المجتمع الاسلامي وأوروبا ؟ ولو كان الامـر كذلك لكان فيه البرهان على أن الاسلام لا يؤلف في ذاته عقبة تحول دون المراحل من تطور انتهى في أوروبا الى الراسمالية المعاصرة ، وسيكون علينا ان نتساءل : لماذا لم يتبع تلك المراحل الاولى نفس التطور الذي شهدته أوروبا ؟ وأن نسأل : هل الاسلام ، هنا ايضا ، مسؤول عن ذلك ؟

الفصل الثاني

تعاليـم الاسـلام

يتحدث في هذا الفصل عن القرآن والسنة ، وبعد أن يتشكك في الحديث كعادة المستشرقين ، يتحدث عن التجارة والربا ، ثم يعرض المثل الاعلى للعدالة الاجتماعية كما يتصوره القرآن والسنة ، ويتعرض للمناقشة التي جرت بين ناصر أحمد شيخ وأبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الاسلامية في باكستان حول حق التملك للارض ، مرجحا راي المودودي .

الفصـل الثالث

التعامل الاقتصادي في العالم الاسلامي الوسيط

يورد المؤلف رودنسون في الفقرة الاولى المعنونة بـ (القطاع الراسمالوي) من هذا الفصل عددا من الشواهد التي يحاول ان يثبت من خلالها تحكم الربا في الاقتصاد الاسلامي ، ونحن سننقد هذه الشواهد بعد الانتهاء من عرض الكتاب.

ثم يقول في نهاية هذه الفقرة « ص ، ١٠٦ » : (فالعالم الاسلامي لم يعرف قطاعا رأسمالويا فحسب بل ان هذا القطاع ـ كان أوسع وانضج سوق رأت النور ـ قبل أن تظهر السوق العالمية التي خلقتها البوزجوازية الاوروبية الغربية) . ومع ذلك فان المجتمع المسلم لم يعرف ـ كما أقر الكاتب ـ التراكم الرأسمالي ، ولكنه يأبى أن يعيد ذلك الى الدين الاسلامي فيقول « ص ، ١٠٧ »: (وكان التراكم الرأسمالي الاولي لم يبلغ قط المستوى الذي عرفته أوروبا ، فسبب ذلك ليس الدين الاسلامي ...) .

ثم يتساءل في بداية الفقرة الثانية من هذا الفصل المعنونة بـ « اقطاعية ؟ أم صيغة انتاج آسيوية ؟ » هل ندرج المجتمع الاسلامي تحت صيغة الاقطاعية ؟ ينفي المؤلف ذلك ، ويهزأ بالماركسيين الذين يجهزون ثوب الاقطاعية ليلبسوه المجتمع الاسلامي ، ويفند دعواهم ، وينفي المؤلف ـ في الوقت نفسه ـ امكانية ادراج المجتمع الاسلامي تحت (صيغة الانتاج الآسيوية) ذلك الاصطلاح الذي أورده ماركس في مسودة بحث له . ثم يخلص رودنسون الى الرأي التالي « ص ، ١١٨ » : (فاذا عدنا الآن الى النظام الاقتصادي الذي كان يستند اليه المجتمع الاسلامي في العصر الوسيط نجد انه اتخذ أشكالا متغايرة وفقا للازمنة والامكنة ، ومن الممكن القول انه كان يقوم على التنسيق بين صيغ انتاج مختلفة) .

ثم ينفي ان يكون تعدد صيغ الانتاج حائلا دون ظهور الراسمالية فيقول « ص ، ١٢١ » : (واذن فليس بالامر المؤكد ان وجود مختلف الانظمة الاقتصادية التي ذكرناها في ارض الاسلام ، مع ما يعنيه تعددها من تعدد صيغ الانتاج الزراعي ، قد كان حائلا دون ظهور الراسمالية في هذه المنطقة) .

ثم يتساءل في بداية الفقرة الثانية « مجتمع عدالة ؟ » هل كان الاقتصاد الاسلامي في العصر الوسيط اقتصادا عادلا ؟ يجيب : بأن أكثر انصار التاريخ الاسلامي حماسة يجدون عناء في اثبات هذه الحقيقة . ويضيف : ان فترة العدالة المثلى التي يتغنى بها المسلمون تنكمش وتصبح مقتصرة على الاثني عشر

عاما التي حكم فيها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويقر رودنسون بعدالة حكمي الخليفتين الراشدين لكنه يحاول ان ينتقص من هذه العدالة بأن يرجعها الى كثرة الاموال التي تدفقت على المسلمين عقب الفتوحات .

الفصل الرابع

أثر العقيدة الاسلامية بصورة عامة على الصعيد الاقتصادي

يتحدث رودنسون في هذا الفصل عن الاسباب التي حالت دون نشوء الراسمالية في المجتمع الاسلامي طالما انه قد عرف قطاعا راسماليا في العصر الوسيط ، يشابه القطاع الراسمالوي الذي ادى الى الراسمالية الحديثة في أوروبا الغربية ، فيتساءل : أيرجع هذا القصور الى طبيعة الدين الاسلامي ، أو بصورة أعم ، الى طبيعة الايديولوجية الاسلامية في العصر الوسيط ؟ هل كانت هذه الايديولوجية أقل من ايديولوجية اوروبا المسيحية ملاءمة لنمو من هذا النوع ؟

حتى يستطيع رودنسون أن يجيب على هذه الاسئلة يستعرض رأي «ماركس ويبر » الذي يرجع عدم نشوء الراسمالية في المجتمع الاسلامي الى الايديولوجية الاسلامية في حين انه يرجع نشوءها في أوروبا الى عقلانية الذهنية الجماعية الاوروبية ، يعلق على رأيه قائلا « ص ، ١٣٣ » : (وأياما كان الامر ، فان مجرد وجود من يقول بهذه الآراء يفرض على الدارس ان يتعمق في امر العقيدة الاسلامية : هل هي حقا تعوق الفكر عن الاتجاه العقلاني ؟ وهل تشجع على التفكير السحري والتواكل الجبري ؟ وهل هي أكثر اعاقة لازدهار الراسمالية في معناها الحديث من العقائدية المسيحية ، في العصر الوسيط ؟) لذلك يدرس رودنسون العقائدية الاسلامية على صعيدين : صعيد القرآنية ، وصعيد العقيدة الوسيطة بعد القرآن .

يبدأ فقرة « العقيدة الاسلامية » بقوله « ص ، ١٣٤ » : (القرآن كتاب مقدس تحتل فيه العقلانية مكانا جد كبير . فالله « جل وعلا » لاينفك فيه يناقش ويقيم البراهين . بل ان اكثر ما يلفت النظر هو ان الوحي نفسه ، هذه الظاهرة الاقل اتساما بالعقلانية في أي دين ، الوحي الذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور وعلى خاتمهم محمد ، يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان . فهو في مناسبات عديدة يكرر لنا أن الرسل قد جاءوا بالبينات) .

ثم يؤكد اتصاف القرآن بالعقلانية من خلال الشواهد التي يوردها في مجال القدرة الالهية فيقول « ص ، ١٣٥ » : (والقرآن ماينفك يقدم البراهين العقلية

على القدرة الالهية : ففي خلق السموات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، وتوالد الحيوان ، ودوران الكواكب والافلاك ، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية تنوع رائـع التطابق مع حاجات البشر « آيات لأولي الالباب ») .

ثم يتحدث عن ظاهرة تكرار كلمة العقل في القرآن فيقول « ص ، ١٣٦ » : (وفعل « عقل » (بمعنى : ربط الافكار بعضها ببعض ، حاكم ، فهم البرهان العقلي) يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة . ويتكرر ثلاث عشرة مرة هـــذا السؤال الاستنكاري ، وكأنه لازمة : أفلا تعقلون ؟ والكفار اولئك الذين يرفضون الاستماع الى دعوة محمد « عليه الصلاة والسلام » ، يوصفون بأنهم قوم لا يعقلون لانهم قاصرون عن أي جهد عقلي يهز تقاليدهم الموروثة . وهم بهذا كالعجماوات والانعام ، بل اكثر عجمة . ولذلك كان الأب « هنري لامنس » على حق في قوله ان محمدا « ليس بعيدا عن اعتبار الكفر عاهة من عاهات الفـكر البشـري » . فالكفار — ككل المحافظين في كل العصور — يقولون انه يكفيهم ان يتبعوا ما كان عليه آباؤهم ، ومحمد — ككل المجددين — تستثيره هذه الحماقة : أفلا يدركون أن آباءهم قد أعملوا فكرهم قبل ان يضعوا قواعد حياتهم . ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون ان يعيدوا النظر في اسس تفكيرهم . ولئن كـان يرسل الآيات على وجوده وارادته ، واهمها الآيات المنزلة على نبيه محمد ، فلكي يفهمها الناس ويجعلوا منها اساسا لتفكيرهم . ونرى الله يقدم البينـــة الفاصلة ، ثم يختتم البرهان بقوله : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون »(١) ، ولما كان الانسان حرا فأقصى ما يسع الله فعله هو ان يضع أمامهم هذه الآيات ، هذه البينات التي ستكون حاسمة قاطعة بمجرد أن يعملوا حواسهم وملكة المحاكمة فيهم . فان فعلوا فلعلها تهديهم الى الايمان . فان اهتدوا كانوا عالمين ، وكان لهم نصيب مما جاء الرسول من العلم ، هذا العلم الذي هو نقيض الجاهلية والجهل ، جهل الانسان البدائي قبل الوحي الذي يأتي بالحق والصـــدق ، وأما من ظل على كفره فهو الجاهل بارادته ، ذلك الذي « يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير »(١) ولامثال هذا يجب أن يقال : « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون »(٢)) .

ثم ينقل رودنسون عن شارل توراي دراسته عن « من مصطلحات اللاهوت التجارية في القرآن » فيقول « ص ، ١٣٨ » : (العـــلاقات المتبادلة بين الله والانسان هي علاقات تجارية بحتة . فالله خير الماكرين . يسع علمه السموات

---

(١) الروم — ٢٨ .

(١) لقمـان — ٢٠ .

(٢) الانعـام — ١٤٨

والارض ، وكل شيء لديه بحساب وميزان . وهو قد وضع اللــــوح المحفوظ وميزان الحسنات والسيئات ، وجعل نفسه قدوة للتجارة الحسنة الخ ....) ويختتم توراي دراسته بقوله : « من الصعب ان يتصور المرء لاهوتا أكثر دقة رياضية » . ثم يعلق رودنسون على هذه الخاتمة قائلا « ص ، ١٣٩ » : (ودقة الرياضيات تفترض العقلانية) .

ويتحدث رودنسون عن الايمان في العقيدة الاسلامية فيقول « ص ، ١٤٠ »: (ولكن الايمان يظل على صلة مباشرة بالاقتناع العقلي)ويستدرك « ص ، ١٤١ »: (ولا نستطيع أن ننكر أن الايمان القرآني هو شيء أكثر من مجرد الاقتنـــاع العقلاني ومن تقبل الحقائق الموحى بها الى الرسول صلى الله عليه وسلم) .

ثم يقارن مؤلف الكتاب بين نظرة القرآن الى الوحي وبين نظرة العهــدين القديم والجديد اليه ، ويمهد لهذه المقارنة بقوله « ص ، ١٤٣ » : (فاذا كــان القرآن يحكم العقل دعما للوحي ، فمعنى ذلك أنه يعتبر الوحي من أقوال معقولة، في متناول العقل البشري أو في غير تعارض معه على الاقل . وصحيح أن ماينطق به الرسل من وحي يأتي بمعطيات ما كان للانسان ان يكتشفها بنفسه ، ولــكن القرآن يقدم حججا عقلانية تدلل على أنه ينبغي الايمان بهذا الوحي وتصديقه، كما نستمع مثلا الى معلومات عن بلدان بعيدة ، يرويها لنا أناس نثق بصدقهم ، فنعتبر هذه المعلومات صادقة ، وهذا بالاضافة الى حجج اخرى عقلانية جــدا تثبت لنا أن من المصلحة اتباع التعاليم التي يأتي بها الوحي) .

ثم يعرض نظرة كل من العهدين : القديم والجديد ، ويقرر الحكم التــالي « ص ، ١٥٠ » : (في مقابلة هذا تبدو العقلانية القرآنية صلبة كأنها الصخر) . ثم يخلص الى النتيجة الحاسمة التالية « ص ، ١٥٢ » : (وهكذا يتضح لنــا أن مكان العقل في القرآن أعلى بكثير منه في الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية) .

ثم ينتقل رودنسون الى دراسة نظرية القرآن في القضاء والقدر ، هـــذه النظرية التي زعم جل المستشرقين انها ولدت الكسل والخمول والتواكل عنــد المسلمين ، وحالت — في رأي بعضهــم — دون نشوء الراسماليــة ، فيقــول « ص ، ١٥٢ » : (ولذلك لم يكن حديث القدرية والجبرية لديه « أي محمد عليه الصلاة والسلام » حديث اللاهوتي المتحذلق والمتمرس بالجدل العقلاني بل كان حديث الرجل العميق الايمان ، المقتنع بالقوة الالهية المطلقة ، والــذي هو في الوقت نفسه رجل عمل ونضال . ولذلك — كمــا أحسن « غريــم » في وصفه — « يعتبر الاحداث الارضية كمحصلة لآثار الاعمال السماوية والانسانية معــا ») .

ثم يبين حث الاسلام على العمل والجهاد فيقول « ص ، ١٥٣ » : (واذا كانت ثمار الارض تمجد في كثير من المواضع كأمثلة لجلال ماصنع ، ولاسيما الحبوب والفاكهة والمراعي ، فذلك يعني بالضرورة تشجيعا للزارعين والرعاة على العمل استزادة من هذه العطايا الالهية . والدعوات الى الجهاد المقدس ، أليست حثا على نوع آخر من العمل ؟ الا يوصي القرآن بالشجاعة وبالصلابة أمام العدو والصمود في المعركة ؟ « ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون»(١) ، وصحيح أن الله يعد بتقديم المعونة ، ويقدمها فعلا ، وأنها عامل جوهري في النصر ، ولكنها لا تعفي الانسان أبدا من ان يكافح بما بين يديه من وسائل انسانية . انظر كيف يعين الله داوود الرسول الحداد ، في عمله : « ولقد آتينا داوود منا فضلا ــ يا جبال أوبي معه والطير ــ وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر في السرد». في كل هذا لانجد أية دعوة للقعود انتظارا لعون الله) .

ثم يستعرض بعض النصوص المتعلقة بالقضاء والقدر عند اليهودية والمسيحية ، ويخلص ــ بعد المقارنة ــ الى النتيجة التالية « ص ، ١٥٦ » : (ولكن هذه النصوص تكفي للبرهان على انه ، لو وجدت نزعة نامية الى الجبرية واللاعمل ، لعثرت في الكتب المقدسة لهذين الدينين على مصادر تبرر موقفها ، تساوي اذا لم تفق مثيلتها في الاسلام) .

ويتعرض رودنسون للسحر ويفنده دعوى « ويبر » بشأنه فيقول « ص ، ١٥٩ » : (ولذلك كان من الواجب أن ندحض ما يزعمه « ويبر » حين يقول : « باستثناء اليهودية والمسيحية ، وشيعتين أو ثلاث في الشرق ــ منها واحدة في اليابان ــ ، ليس هنالك من دين أعلن حربا صريحة على السحر » . ان ويبر قد نسي الاسلام .

ذلك أن « الحرب المعلنة » على السحر في الكتب المقدسة اليهوديةوالمسيحية تماثل تماما موقف القرآن . وأنها اعتراف للتقنية السحرية ومبادئها بالقيمة والجدوى ، ولكن ضمن حدود ارادة الله . فالله قد يأذن أو لا يأذن بنجاح العمل السحري ، كما يأذن أو لا يأذن بنجاح العمل التقني) .

ويلخص رودنسون ــ في النهاية ــ تحليله فيما يتعلق بالعقلانية والقضاء والقدر والسحر فيقول « ص ، ١٦١ » : (العقيدة القرآنية ، اذن ، كما بدا لنا ، أكثر استنادا الى المحاكمة والى العقلانية من العقيدتين اللتين تتجليان من خلال العهد القديم والعهد الجديد . وهي بعد لا تتحدث عن القضاء والقدر

---

(١) محمد ــ ٣٥ .

(٢) سبأ ، ١٠ ــ ١١ .

الا بمثل حديثهما ، ولكنها مع ذلك تحض حضا جليا على العمل الناشط في الحياة الفردية والاجتماعية . وهي اخيرا مثلهما في اخضاع التقنية السحرية للارادة الالهية ، بما يفسح للبشر سبيل سد الطريق على هذا السحر ، أيا كان مبلغه من الكمال) .

ثم يردد رودنسون في فقرة « العقيدة الاسلامية بعد القرآن » ما نفاه عن الاسلام من اللاعقلانية ، والجبرية ، والسحر . ثم يرد على ويبر فيما يتعلق بعقلانية القانون الروماني ودورها في ايجاد النظام الراسمالي ، بأن هذه العقلانية جاءت نتيجة وليست سببا ، وفيما يتعلق بتعارض العقيدة الاسلامية مع الطلب المستمر للربح بأن الاسلام أكثر تشجيعا على التوسع الاقتصادي من موقف اللاهوتيين المسيحيين ، وفيما يتعلق بافتقاد روح المبادرة عند مسلمي العصور الوسطى بأن الاسلام يدفع الى العمل ويضفي عليه القدسية .

الفصل الخامس

الاسلام والراسمالية المعاصرة في البلدان الاسلامية

يطرح في بداية هذا الفصل ثلاثة اسئلة ، ويدور الفصل في الاجابة عليها :
الاول : هذا التوسع في القطاع الراسمالي ، هل هو في البلدان الاسلامية ذو منشأ خارجي أم ذو منشأ داخلي ؟

ويجيب عليه بأنه ذو منشأ خارجي ، ونتيجة لمؤثرات أوروبية .

الثاني : هل أعاق الدين الاسلامي هذا النمو الراسمالي في الحقبة المعاصرة ، أم هل ساعد عليه ؟ والى أي مدى ؟

ينفي اعاقة الاسلام للتطور الراسمالي في العالم الاسلامي ، ويرد على الذين زعموا أن منع الربا في العقيدة الاسلامية قد قام بذلك ، يرد بأن التعامل بالربا كان متفشيا في المجتمع الاسلامي ، ويورد عددا من الامثلة الدالة على ذلك ، ونحن سنتعرض لهذه الامثلة عند نقدنا ـ في النهاية ـ للكتاب .

ثم يشيد الكاتب بمحمد عبده وعقليته المستنيرة « ص ، ٢٢٠ » ويسند اليه فتوى تجيز ايداع المال في صناديق التوفير واخذ الفائدة عليه ، ثم يشيد به مرة ثانية « ص ، ٢٢٥ » فيقول : (أما محمد عبده فكان رجلا من طينة أخرى . كان مجددا ، تقدميا ، مقتنعا بقوة التطور على النحو الاوربي وبفائدته بصورة

اجمالية ، وبامكان التوافق بينه وبين المبادىء الجوهرية في الاسلام ، وبأن ما يقتضيه الامر كان مواءمة التأويلات السلفية لهذه المبادىء مع اسس النظام الجديد . ولكن آخرين تبنوا موقفا آخر : فلقد كانوا على العكس يرون تناقضا بين مبادىء الاسلام والمدنية الحديثة ، وازداد هذا الموقف الفكري قوة بانتشار الانتقادات الموجهة ضد المجتمع الراسمالي بوصفه الشكل الاقتصادي المهيمن على هذه المدنية حتى السنوات الاخيرة ، وفي هذا التناقض كانوا يرون أن العالم الاوربي هو المخطىء وان عليه هو ان يخسر المعركة . فالاسلام سبق منذ قرون (وكم في هذا من ارضاء للشعور الجماعي الكامن في قلب كل انسان) الى تلك الانتقادات التي يوجهها ابناء اوربا نفسها الى النظام الذي تعيش عليه . والاسلام كان قد طرح حلوله التي يتجاهلها حتى ابناؤه ، وهي حلول عادلة لانها جاءت من الله ، بل لعل كثيرين كانوا يرونها كذلك لانها جاءت من جماعتهم . وكان اذن يكفي أن نعود اليها) .

ثم يبين فشل الدولة الباكستانية « الاكثر تصميما على تطبيق التشريع القرآني » في الغاء الربا ، ويحاول أن يستنتج من ذلك استحالة الغائه .

الثالث : هل يتميز هذا القطاع الراسمالي الحديث بسمات خاصة به في البلدان الاسلامية ؟ واذا كان ذلك فهل ترجع هذه الخصائص الى الدين الاسلامي ؟

ينفي رودنسون ان تكون الراسمالية الموجودة في العالم الاسلامي ذات سمات خاصة ، واذا كان ذلك قائما فعلا فلا يعود الى الدين الاسلامي .

ويحمل رودنسون على اوستروي مؤلف كتاب « الاسلام والتنمية الاقتصادية » ويتهمه بالحداثة وابتسار الاحكام لانه يقول : ان عقلية الاسلام السلفية لم تساعد على نمو الراسمالية ، بل ساعدت على ضخامة دور الدولة في الاقتصاد منذ البداية ، والاتجاه نحو اشكال اقتصادية اكثر اخذا بالادارة الحكومية . ولقوله : بعدم تلاؤم الاسلام مع طراز الملكية الفردية الحصرية الذي دفعت اليه الراسمالية الغربية . ولحديثه : عن القسر الصامت ودوره في مقاطعة الأجانب .

الفصل السادس

نتــائج وتوقعــات

يدعو رودنسون العالم الاسلامي ، في هذا الفصل ، الى الاخذ بالايديولوجية الماركسية ، ويتنبأ بأنه أي العالم الاسلامي ، مقدم على صراعات لاهبة ، ويدعو الى تطوير الاسلام وتجديده .

النقــد

١ ـ يصور رودنسون الاسلام عقيدة لا تؤثر في مجرى الحياة الاقتصادية للمجتمع الاسلامي ، وذلك في فترتين :

أ ـ العصور الوسطى .

ب ـ العصر الحديث .

وهو يقع في تناقضات واضحة من اجل الوصول الى هذه النتيجة ، ونحن سنبين ذلك في مناقشة أقواله حول الفترتين .

أ ـ العصور الوسطى : يقرر رودنسون ، ابتداء ، أن العالم الاسلامي قد عرف ـ في هذه الفترة ـ القطاع الراسمالوي ، ويقر ـ كذلك ـ بأن هــذا القطاع لم يتطور الى الراسمالية ولا يرجع عدم التطور ـ هذا ـ الى الاسلام ، بل يرجعه الى اسباب مبهمة ومجهولة ، مع أنه ينفي احتواء العقيدة الاسلامية لمفاهيم اللاعقلانية والجبرية والسحر التي تحول دون تطوير القطاع الراسمالوي الى راسمالية .

ليس من شك بأن الاسلام هو الحائل دون تطوير القطاع الراسمالوي الى راسمالية ولكن المؤلف يورد شبهة في هذا المجال هي : أن بلادا أخرى كالصين واليابان والهند قد نما فيها القطاع الراسمالوي في زمن مواقت لنموه في العالم الاسلامي ، ومع هذا لم يتطور ذلك القطاع في تلك البلاد الى رأسمالية ، مما يدل على أن الاسلام ليس هو الحائل دون مثل هذا التطور في العالم الاسلامي . ولكن نسي المؤلف خلال مقارنته هذه أن العقائد التي كانت سائدة في الصين واليابان والهند محشوة بمفاهيم اللاعقلانية والجبرية والسحر وهي المفاهيم التي تحول ـ أصلا ـ دون مثل هذا التطور .

هذا على صعيد التاريخ ، أما على صعيد النظرية فاننا نقول واثقين : بأنه لو واجه الاسلام الراسمالية الحديثة وهو يملك السيطرة على النفوس ، ويتحكم في الدولة تحكما حقيقيا لاخذ الآلة واستخدمها في خدمة المجتمع الاسلامي ، ولبقي النظام الاقتصادي الاسلامي محتفظا بطابعه الخاص بعيدا عن مساوىء الراسمالية وشرورها ووحشيتها ، وذلك لتحريمه الربا والاحتكار والاستغلال عوامل تفريخ الراسمالية .

ب ـ العصر الحديث : يمكن أن نتفق مع الكاتب بأن الاسلام في العصر الحديث لم يقف حائلا دون نمو الراسمالية الحديثة في العالم الاسلامي لسبب بسيط : هو أن الاسلام قد ضعف حكمه على النفوس ، وخفت سيطرته على واقع الحياة . لذلك فان سؤاله عن الصفات التي طبع بها الاسلام النظام الراسمالي لا مبرر له طالما انه يقر في مواطن متعددة من كتابه بأن واقع المسلمين مختلف تمام الاختلاف عما جاء به دينهم .

ويمكن ان يترك الاسلام أثره في كل مجال لو امكن رأب ذلك الصدع المتولد عن التباين بين واقع المسلمين وعقيدتهم .

وفي الحقيقة ، وللحقيقة ، ان محنة العالم الاسلامي ـ الآن ـ رهيبة ، فقد ترك ذلك الصدع المرعب اثره في كل مجال : في العقول ، في النفوس ، في الاسرة ، في الاخلاق ، في التعامل ، في الشارع الخ .... ليس هذا فحسب بل ان قوى اليهودية ـ الصليبية ساهرة لتبقي على ذلك الصدع وتحول دون رأبه ، يقظة لتزيد البعد بين طرفيه .

وللحقيقة ـ ايضا ـ لم يمر العالم الاسلامي بمثل هذه المحنة ، صحيح أن الصليبيين قد احتلوا هذه البلاد : قتلوا ، ضربوا ، دمروا ، استعبدوا ، لكن بقي مفتاح الانطلاق في ايدي المسلمين من جهة ، ولم يتهدم كل كيان الاسلام من جهة ثانية ، بل بقي بعض كيان الدولة الاسلامية جاهزا لتنصب فيه الجهود متى زالت غفلة النفوس ، وذهب خور القلوب . اما الآن فان جهاد المسلمين سيكون على مرحلتين : الاولى : للحصول على مفتاح الانطلاق ، الثانية : لاعادة البناء الجديد الكامل .

٢ ـ قدم رودنسون في موضعين من كتابه شواهد متعددة حول التعامل بالربا في المجتمع الاسلامي في عصوره القديمة والحديثة ، هادفا ان يبرهن أن صورته لا تختلف عن بقية المجتمعات المعاصرة له قديما وحديثا .

ونحن الآن سنستعرض هذه الشواهد ونرى قيمتها التاريخية ، ولكن قبل أن نستعرضها نحب أن نقرر حقيقة هي : ان المجتمع الاسلامي عرف التعامل بالربا ، ولكن لم يعرفه الى الحد الذي يزعمه المستشرقون على أنه قانون غالب سائد في المجتمع ، ولكن عرفه كاستثناء ، كخروج عن القاعدة، كمخالفة للاساس ، كحالات شاذة ، وتلك هي طبيعة الحياة ، وسنة القوانين الاجتماعية اذ لابد من ملابسات خروج جزئية عنها .

والآن بعد تقرير هذه الحقيقة ، يمكن أن نستعرض شواهده .

أ ـ يقول رودنسون « ص ، ٨٠ » : (والدليل على أن تحريم الربا لم يؤد الى كثير من الآثار العملية هو أن فقهاء الشريعة بذلوا الكثير من الجهد لاكتشاف أساليب يدورون بها من حول التحريم النظري ، أساليب عرفت في العربية باسم « الحيل » . وهناك كتب خصصت لعرض هذه الحيل ، منها كتب أبي أحمد الخصاف ، وأبي حاتم محمود القزويني ومحمد بن الحسن الشيباني) .

لكن يعلم من له أدنى المام بالفقه الاسلامي انه اتجه في العصور الماضية الى حل مشاكل أحادية ، أو تصور مشاكل لا أصل لها ، أو حتى مستحيلة الوجود والتحقق ، فلا يعني وجود مسائل الحيل في كتب الفقه أو كثرتها على أنها موجودة أو كثيرة في الاصل . فكتب الفقه ليست مرآة تعكس الواقع في شمول ، أو مقياسا يرصد المحيط في دقة ، انما هي ـ في الحقيقة ـ مرآة ومقياس للواقع الذهني والمحيط المنطقي في ذلك العصر .

ب ـ يستشهد رودنسون بعد ذلك بطرفة من كتاب البخلاء للجاحظ ، ينقلها ثم يعلق عليها « ص ، ٨٤ » : (ومن هؤلاء بخيلان بصريان كانا يشتغلان بالتعيين[1] ، وكان أولهما يعين مالا عظيما ، ولم يكن له وارث ، فكان يسخر بعضهم عند الاشهاد : قد علمتم أنه لا وارث لي ، فاذا مت فهذا المال لفلان . فكان قوم كثيرون يحرصون على مبايعته بهذا) .

---

(١) التعيين : بيع السلعة بثمن الى أجل ، ثم شراء السلعة نفسها من المشتري نفسه في المجلس نفسه أقل حتى لا يقال ربا .

ليس من شك بأنه لايمكن أن نعتمد كتاب (البخلاء) للجاحظ كبوصلة تشير الى اتجاه الواقع الحياتي ، وذلك لجوه الفكاهي .

ج ــ ثم يستشهد بقصيدة لناصري خسرو تتحدث عن سوء أخلاق المرابين فيقول « ص ، ٨٦ » : (مثال ذلك تلك القصيدة الفارسية المنسوبة الى « ناصري خسرو » الداعية الاسماعيلي في القرن الحادي عشر ، والتي تتضمن فصلا خاصا عن « سوء أخلاق المرابين » . يصفهم بأنهم كائنات حقيرة تعيش على امتصاص دماء الفقراء ، ومصيرها الى جهنم ، متسائلا كيف يمكن الاطمئنان الى أناس كهؤلاء يبيعون أرواحهم بالسحت ، لقاء دراهم معدودات ؟ ان هذا المأخذ الاخير جلي في أنه يتناول مسلمين) .

ليس من شك بأنه لايمكن ان يطبق قانون تحت ظل اية عقيدة ، وفي أي نظام بشكل كلي وكامل ــ كما قلنا سابقا ــ فلا بد من أن يخرج عليه بعض الناس ، فلماذا لا نعتبر حديث القصيدة هذا عن مثل ذلك الشذوذ ؟

د ــ أما النصوص المتبقية عن انتشار الربا فيتعلق بعضها بنهايات الدولة العثمانية ، ويتعلق بعضها الآخر بالمغرب والجزائر وتونس خلال الحماية الفرنسية .

ونحن لا نختلف مع الكاتب بأن الربا قد فشا في المجتمع الاسلامي خلال العصر الحديث ، ولكن بعد أن ارتفعت سيطرة الاسلام عن واقع الحياة ، ونحن لانريد ان نبحث الاسباب الكامنة وراء ذلك فلهذا موضع آخر ، ومع ذلك تبقى فترة التعامل ــ في مدتها ــ يسيرة ، وبقعة ظلام في محيط نوراني .

٣ ــ يعود الفضل في ابتعاد المستشرقين عن الخلط بين واقع المسلمين ، وعقيدتهم ، واعترافهم بأن واقع المسلمين ليس ثمرة عقيدتهم ودينهم ، يعود الفضل في ذلك الى تقديم الحركة الاسلامية نماذج مسلمة حققت الاسلام في نفسها كأروع ما يكون التحقيق ، وحملت بذهنها ــ في الوقت نفسه ــ الثمار العقلانية للحضارة الغربية دون أدنى مشقة أو نصب ، وبالعكس فغالبا ما يكون الاسلام هو الدافع الى مثل هذا الجمع في هذه الصورة .

ولم يتيسر مثل هذا الجمع في الماضي ، فكنت ترى في واقع المسلمين أحد رجلين : رجلا متعلما متفرنجا ، مفتونا بالغرب ، بعيدا عن الاسلام ، أو رجلا مسلما معاديا للحضارة الغربية دون فهم لعلومها وتمحيص لمنجزاتها .

أما الآن فانك ترى رجلا يحمل أعلى الشهادات العلمية في الذرة او الفيزياء أو الكيمياء الخ ... ويحقق الاسلام ــ في الوقت نفسه ــ في ذاته .

٤ ــ يعود الفضل ــ ايضا ــ في نفي المستشرقين الحديث تهم اللاعقلانية والسحر والجبرية عن العقيدة الاسلامية الى أن الفكر الاسلامي قد بلغ درجة عالية من النضج ، وشأوا رفيعا من التماسك والنقاء ، بحيث يصبح الصاق مثل هذه التهم به سخيفا ومضحكا ، وخاصة أن الفكر الاسلامي قد تبرأ من أمراض ردود الفعل من جهة ، وبدأ تعرية الحضارة الغربية وإظهار بعض سوءاتها من جهة ثانية .

٥ ــ ان اشارة رودنسون لمحمد عبده تكرار لما قاله بعض المستشرقين عنه . وان هذا الاجماع من المستشرقين في مدح محمد عبده يرفع الشكوك التي تراود المفكرين الاسلاميين حول دوره التخريبي في الفكر الاسلامي المعاصر الى مرتبة اليقين .

لكن أحلام المستشرقين في تخريب الفكر الاسلامي ــ ولله الحمد والمنة ــ لم تتحقق ، ومخططاتهم لم تنفذ الى آخرها فقد بقي محمد عبده حلقة منفردة لم تتبعها حلقات أخرى ، وهذا ما زاد في أسف المستشرقين عليه ، بل عاد الفكر الاسلامي ، وأخذ وجهته الصحيحة ــ ليس هذا فحسب ــ بل نفى عنه سمومه وأوضاره ، وهذا من بدائع تقديرات الله وحكمه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

٦ ــ حينما يأخذ رودنسون الباكستان مثالا على استحالة تطبيق تحريم الربا ، يتناسى ان باكستان قد أنشأتها المواضعات السياسية ، والعواطف الاسلامية ، وليست الشخصية المسلمة التي يملأ الاسلام كيانها .

٧ ــ يحتم رودنسون على العالم الاسلامي أن يسير في اتجاه اقتصادي معين ، ولكننا نقول : بأن القوانين المحركة للعالم الاسلامي والمتمثلة في فعل الشخصية الحضارية التاريخية بالواقع ، ابعد أثرا من حتمياته . وقد تأكد قانون فعل الشخصية الحضارية التاريخية لامتنا من خلال فشل تجارب الاوربة ، والديمقراطية ، والفرعونية ، والقومية السورية ، والمتوسطية ، والراسمالية ، .... ، في العصر الحديث .